تدريس الأدب العربيّ في أميركا: تقريب بين الحضارات أم توسيع للهوّة بينها؟

د. ماجدة النويهي*

في مقابلة إذاعيّة مع محطة NPR الأميركيّة، سُئِلت الكاتبةُ المصريّة أهداف سويف عن دور الأدب في علاقات الشعوب والحضارات المختلفة، فتضمّن ردُّها مثالاً. قالت الكاتبة إنّ قراءاتها في الأدب الروسيّ، ومعرفتَها الحميمة ومعايشتَها لشخصيّات دوستويفسكي وتولستوي وآخرين، جعلتْ من المستحيل أن «تُشيِّئ» الإنسانَ الروسيّ، وأن لا تنظر بعين التعاطف والاحترام إلى قضاياه ومشاكله وصعوبات حياته. وهذا هو بالطبع الهدفُ الأساسيّ لمحاولات العرب في أميركا ترجمةَ الأدب العربيّ وتدريسَه، ولسانُ حالهم: «إذا عرفونا من خلال أدبنا فسيفهموننا، وسيكون من الصعب عليهم أن يجرِّدونا من آدميّتنا.» قد يكون هذا صحيحًا، ولكنْ...

كعربيّةٍ مقيمةٍ في الولايات المتحدة وأستاذةِ الأدب العربيّ في جامعةٍ أميركيّة عريقة، لا يسعني إلاّ أن أعترف بأنّ علاقة الطلاب الأميركيّين بالأدب العربيّ مازالت تتّسم بالجهل، والعنصريّة، والتعصُّب، والإحساسِ بالتميُّز والتفوُّق من قِبَلهم. عادةً ما يدرِّس الأدبُ العربيّ في الجامعات الأميركيّة في أقسام «دراسات الشرق الأوسط.» وهذه الأقسام لا تحظى بقدرٍ كبيرٍ من الدعم من إدارة الجامعة، ولا بمقام رفيع بين أقسام الجامعة الأخرى. ولانعدام الدعم من إدارة الجامعة، كثيرًا ما تُضطرّ هذه الأقسامُ إلى طلب المعونة من جهات خارجيّة، مثلِ أثرياءِ شيوخ النفط أو وزارةِ الخارجيّة الأميركيّة التي حدَّد لها الكونغرسُ الأميركيُّ ميزانيةً للأغراض التعليميّة والمعلوماتيّة تتحكّم فيها تمامًا. ومن البدهيّ أنّ هذه «المعونات» لا تُمنح بدون قيود، وأنّها تلعب دورًا في اختيار الكتب وتحديدِ المقرَّرات وربّما أيضًا في تعيين الأساتذة وترقيتهم. وقد يكون هذا الدعمُ وقيودُه من أسباب هيمنة النزعة الفيلولوجيّة المعادية للتنظير، والمستتبّة في معظم أقسام دراسات الشرق الأوسط. ذلك لأنّ النظريات الأدبيّة الحديثة قد تشكّل خطورةً على مصالح الجهات الداعمة لكون هذه النظريات تثير التساؤلات عن صلة المعرفة بالسلطة، وعلاقةِ الخطاب بالحياة الماديّة، ومشاكل التمثيل (representation) الخ. والنتيجة هي أنّ الجامعات الأميركيّة تقدِّم نموذجًا لتوزيع المسؤوليات لا يختلف كثيرًا عن العالم الخارجيّ: فالأقسام الأوروبيّة تُنْتج النظرية، ونحن نقدِّم المادةَ الخامَ لتطبيقها؛ وهي تحدِّد آفاقَ الخطاب النقديّ، ونحن نلعب دور «المُخْبِرِ ابنِ البلد» the native informant؛ هي الفاعلة ونحن المفعولُ به.

بالإضافة إلى هذا فإنّ دوافع نشوء هذه الأقسام والشكل الذي اتّخذَتْه ـ وهو ما حلّله باستفاضةٍ د. إدوارد سعيد في كتابه **الاستشراق** ـ يجعل من الصعب أن تكون هذه الأقسامُ فضاءاتٍ للمعارضة والنضال. فهي أقسام وُلدتْ لإنتاج معرفة تَخْدم أغراضَ البعض (الغرب) على حساب البعض الآخر (العالم الثالث)، وتَدْعم نظامًا عالميًا يتكوّن من أقليّةٍ مرفّهة وأغلبيّةٍ مسحوقة.

إنّ لفظة «الشرق الأوسط» لم تَلْعب أبدًا دورَ المظلّة التي تَجْمع تحت ظلّها المفكّرين ذوي اللُّغات والجنسيّات المختلفة في المنطقة، ولم تَكُنْ أبدًا نداءً للوحدة ومكافحةِ الاستعمار بأشكاله المتعدِّدة، بل هي لفظةٌ خَلَقَها الاستعمارُ نفسُه. ولذا يَعْمل أساتذةُ أقسام دراسات الشرق الأوسط في الولايات المتحدة على أدب منطقة بعينها، وفي إطارِ لغةِ هذه المنطقة (التركيّة ـ الفارسيّة ـ العبريّة ـ

* ـ أستاذة الأدب العربيّ في جامعة كولومبيا في نيويورك. ونُشير إلى أنّها ابنة الناقد المصريّ العربيّ الكبير د. محمد النويهي، أحدِ أعمدة هذه المجلّة في الماضي.

تدريس الأدب العربي في أميركا:
تقريب بين الحضارات أم توسيع للهوة بينها؟

العربيّة). وعادةً ما تكون رغبتُهم في التحاور وتبادلِ الآراء والعملِ المشترك منصبَّةً على زملائهم في أقسام الآداب الأوروبيّة، لا مع بعضهم البعض؛ فالتحاور مع أوروبا هو الطريق المؤدّي إلى العالميّة (cosmopolitanism) والخروج من الأماكن المهمَّشة في الجامعة إلى الأماكن المحترمة المرموقة.[1] إنّ كراهية الذات، والفروقَ بين الشعوب التي خلقها الاستعمارُ في منطقتنا الجغرافيّة، يعاد خلقُها في أقسام دراسات الشرق الأوسط في الجامعات الأميركيّة. والنتيجة هي أنّ هذه الأقسام تتكوّن من أفراد وُضعوا معًا برغم أنوفهم بغرض تيسير «دراسة حضاراتهم» للسلطات المهتمّة بذلك. وإنّ المنطقة المهمَلة التي تَقْبع فيها هذه الأقسامُ في الجامعات الأميركيّة هو أبلغُ تصوير لضعة مقدار الحضارات التي تمثّلها بين حضارات العالم؛ والانقساماتُ والفروقُ بين أساتذتها هي انعكاس صادق للفوارق والصراعات المحزنة بين بلدان المنطقة.

لقد فقدتْ معظمُ شعوب العالم الثالث، بما في ذلك المفكرون، القدرةَ على التحاور بلغة غير الإنجليزيّة (وأحيانًا الفرنسيّة) وخارج الإطارات التي حدّدها الفكرُ الغربيّ. فنادرًا ما تتلاقى وتتعايش حضاراتُ العالم الثالث الأخرى بدون تدخُّل الغرب. كم واحدًا منّا يجيد التركيّة أو الفارسيّة أو العبريّة؟ ولنقارنْ هذا بالأعداد التي تجيد الإنجليزيّة والفرنسيّة. إنّ الطريق الوحيدة التي أقرأ بها روايةً تركيّة أو قصيدةً فارسيّة إنّما تكون عبر الترجمة إلى الإنجليزيّة، ولأنّ الغرب هو الذي قرّر أنّ هذه الرواية أو القصيدة تستحق الترجمة.

المشكلة هنا لا تَقْبع في أنّ الأدب لا يُمْكن أن يُفْهَم أو يُتذوّقَ إلاّ في لغته الأصليّة. المشكلة الأساسيّة هي أنّ ما يُترجم إلى الإنكليزيّة، والأشكالَ التي تتّخذها الترجمة، ذاتُ علاقة وطيدة بسياسة التلقّي politics of reception في الحضارة المُضِيفة host culture أكثر منه بآليات الحضارة التي يَنْبع منها الأدبُ نفسُه. وعادةً ما تتّسم النصوصُ المختارة للترجمة بأنّها تَدْعم وتؤكّد الأفكارَ المسبّقةَ عن العالم العربيّ. ففي الأدب العربيّ مثلاً نجد أنّ كاتبةً مثل نوال السعداوي هي من أكثر الكتّاب المترجَمين إلى الإنجليزيّة والمُدرَّسين في الجامعات الغربيّة، في حين أنّ الكثير من الكتّاب المهمّين، أمثال غالب هلسا، ليست لهم أعمالٌ مترجمة إلى الإنجليزيّة. إذا نظرنا أيضًا إلى التغييرات التي تَحْدث في تلك النصوص في رحلة الهجرة إلى الشمال، لوجدنا ما يثير الاهتمام. فمثلاً كتاب نوال السعداوي **The Hidden Face of Eve** (الوجه المُغَطّى لحوّاء) يبدأ في النسخة الأميركيّة بتفاصيل مجسّمة لعمليّة ختان، في حين أنّ مرادفه في العربيّة **الوجه العاري للمرأة العربيّة** يبدأ بإدانة الإمبرياليّة وتمجيدِ الثورة الإيرانيّة؛ وهذه الأجزاء اختفَتْ تمامًا من النسخة الأميركيّة.[2] إنّها تغييراتٌ ليست بريئة، وليست بدون توابع.

وليس المقصود هنا اختيار الأعمال التي تقدّم للغرب صورةً إيجابيّةً وفاضلةً عن العالم العربيّ. بل المشكلة الحقيقيّة هي أنّه، في عمليّة هجرة النصوص، تتغيّر علاقةُ النص بالسلطة تغييرًا جذريّاً: فالنصوص الأدبيّة المعارضة للسلطة بكل صورها في بيئتها الأصليّة، لكونها تتعامل مع قضايا المهمّشين والمضطهَدين

١ ـ في قسم دراسات الشرق الأوسط بجامعة كولومبيا نحاول بجديّة تغييرَ هذا الوضع عن طريق تدريس صفوفٍ تَجْمع بين آداب المنطقة، وتشجيعِ طلاّب الدراسات العليا على الكتابة المقارنة بين تلك الآداب.

٢ ـ للمزيد من التفاصيل، انظر المقال المتاز: Amal Omireh, "Framing Nawal al-Saadaw," in **Signs**, vol. 26, No. 1 (Fall 2000).

إنّ الإيمان بالنسبيّة علاجٌ فعّال ضدّ الإيمان بتفوُّق حضارة على أخرى، ولكنّ خطورته تَكْمن في احتمال خلق جوّ من الليبراليَّة السياسيَّة المعادية للالتزام

داخل مجتمعاتهم، تتحوّل إلى نصوصٍ داعمةٍ للسلطة في البيئة المتلقّية، ويصبح استخدامُها لمجرّد تأكيدِ وتوطيدِ الأفكار المسبّقة والمستتبّة عن «هؤلاء العرب» الذين يسيئون معاملةَ نسائهم ويتّسمون بالعنف والهمجيّة والتعصُّب الدينيّ الخ. فمع تغيُّر البيئة تتغيَّر علاقةُ النصّ بعالمه وقرّاءه: من نصوص صِدَاميَّة تثير التساؤلات في القرّاء وتدفعهم إلى رفض الواقع والثورة عليه، إلى نصوص تؤكّد ما كنّا نعرفه دائمًا عن «هؤلاء الناس.»

بالإضافة، إذن، إلى وجود نصوص معيَّنة أو عدمه في الإنجليزيّة، توجد أيضًا مشكلةُ قراءة هذه النصوص. إنّ أيّ قراءة ذكيّة لنصٍّ ما تستدعي فَهْمَ علاقة هذا النصّ بسياقات متعدِّدة: أدبيَّة وغير أدبيَّة. والطلاّب الأميركيُّون لا يكتفون بالتعامل مع نصّ «ناقص» بسبب عدم إدراكهم لسياقات النصّ العديدة، بل إنّ السياقات ودائرةَ العلاقات التي يأتون بها إلى النص مكوِّنةٌ هي أيضًا من «تجاربهم» مع العرب من خلال الإذاعة والتلفزيون والصحافة الأميركيَّة. وعندما يبدأ طالبٌ أميركيّ صفًا في الأدب العربيّ، فإنّ هدفه الأساسيّ عادةً هو أن يَفْهم كيف يجسِّد النصُّ «العقلَ العربيّ» و«ماهيةَ العروبة.» وهذا ليس صحيحًا فقط بالنسبة إلى الطلبة الذين لا يَخْجلون من الاعتراف بأنّ سبب اهتمامهم بالموضوع هو التحضير لوظيفة في الـ C.I.A. أو وزارة الخارجيّة الأميركيّة أو البنك الدوليّ، بل هو صحيح أيضًا بالنسبة إلى الطلاّب الصادقي النيّة في فَهْم الحضارات المختلفة والتقريبِ بينها بهدف حدّ النزعات والحروب في العالم. ومهما حاولت الأستاذةُ تذكيرَهم بآليات العمل الأدبيّ، بالسخرية والفانتزيا وتعدُّدِ المعاني والغموض المتعمّد الخ؛ ومهما حاولتْ عقدَ مقارنات بين شخصيّاتٍ وأحداثِ النصّ وبين شخصيّاتٍ وأحداثٍ مألوفة من مجتمعهم، فإنّ الرغبة في فَهْم العرب والعقل العربيّ من خلال فهم نصّ أدبيّ رغبةٌ ملحّةٌ من الصعب التغلُّبُ عليها. فعندما يواجهُ الطالب نصّاً أجنبيّاً يصبح نموذجُ «الأدب كمرآة صافية تَعْكس الواقعَ بوضوح» هو النموذجَ السائدَ، ويصبح مقدارُ مطابقةِ النصّ للواقع و«أصالته» المعيارَ الأساسيّ لتذوُّقه والحُكْمِ عليه.

من المؤكّد أنّ الحلّ لا يَكْمن فقط في تقديم المزيد من المعلومات الصحيحة للطلاّب الأميركيّين، ولكنْ أيضًا في جعلهم يُدْركون موقعهم (positionality) بالنسبة إلى النصّ: لماذا وكيف يصلهم؟ كيف يستقبلونه؟ كيف يكون استهلاكُهم إيّاه جزءًا من لعبة المعرفة/السلطة؟ ربّما يكون الهدف من ذلك هو دعوتهم إلى تغيير منظورهم، ولو بشكل موقّت، وعدم استخدام حضارتهم وأغراضهم ومصالحهم مقياسًا للحُكْم: فإذا كان لا بدّ من إصدار الأحكام، فعليهم على الأقلّ إدراكُ النوايا والمصالحِ الحقيقيّة القابعة وراء هذه الأحكام؛ وإذا لم يكن عندهم استعدادٌ لنقد فكرة المقاييس الجماليَّة المُطْلقة، فعليهم أن يَفْهموا أنّ هذه المقاييس «المُطْلقة» ما هي إلاّ معاييرُ أوروبيَّةٌ تَرْتكز على أساس أنّ النماذج الأوروبيّة هي الحلّ للجميع.

إنّ الإيمان بالنسبيّة علاجٌ فعّالٌ ضدّ الإيمان بتفوُّق حضارة على أخرى. إلاّ أنّ خطورته تَكْمن في احتمال خلقِ جوٍّ من الليبراليّة السياسيّة (كلّه ماشي) المعادية للالتزام.

قد تكون الموازنةُ المطلوبةُ هي أن تَرْفض الأستاذةُ بصدقٍ ووضوحٍ ما تؤْمن بضرورة رفضه (ختان البنات مثلاً)، في الوقت الذي تُوضح فيه لطلاّبها النوايا المُغْرضةَ والحقيرةَ للموقف الرافض لذلك في الغرب. إنّه موقف صعب ومعقّد، ولكنّه يَسْمح للأستاذة بأن تكون صادقةً ومدركةً تمامًا لموقعها في الغرب في آن واحد.

نيويورك